«إسرائيل» تزيف دلالة مخطوطات قمران

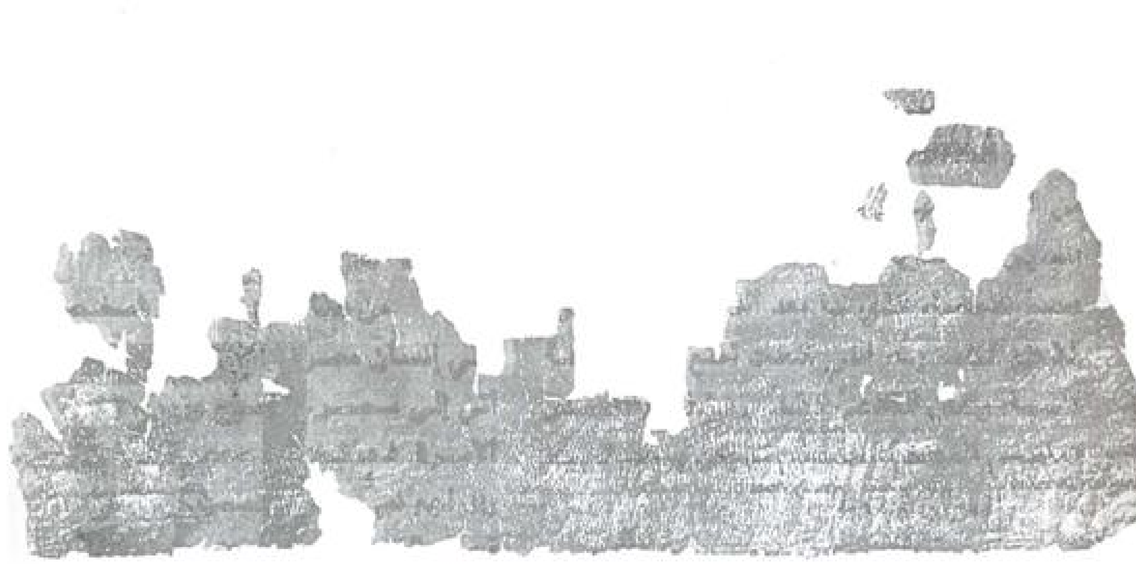
احمد عثمان

تحاول سلطات الآثار الإسرائيلية المحتلة هذه الأيام تغيير دلالات المخطوطات التي عثر عليها في منطقة قمران بالقرب من البحر الميت، بحيث يمكن اعتبارها مكتبة لليهود الأصوليين بدلا من جماعة العيسويين المتمردين على سلطة الكهنة، ولهذا الغرض تم عقد مؤتمر في يناير الماضي ١٩٩٩ في الجامعة العبرية بالقدس.

ويطلق اسم « مخطوطات البحر الميت» على مجموعات المخطوطات القديمة التي تم العثور عليها فيما بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٦ داخل كهوف الجبال الواقعة شرقي البحر الميت، في مناطق قمران ومربعات وخربة ميرد وعين جدي الفلسطينية ومسادا الإسرائيلية. وكان للعثور على هذه المخطوطات خاصة في منطقة قمران - أو عمران - بالضفة الغربية للأردن، على بعد عدة كيلومترات جنوبي مدينة أريحا منذ ما يقرب من نصف القرن، كان لها أثر عميق على تفكير الباحثين اليهود والمسيحيين في العالم، أدى بلا شك إلى تغير كبير في عديد من الاعتقادات القديمة الخاصة بظهور الديانة المسيحية وتحديد العلاقة بينها وبين الجماعات اليهودية التي كانت موجودة في فلسطين.

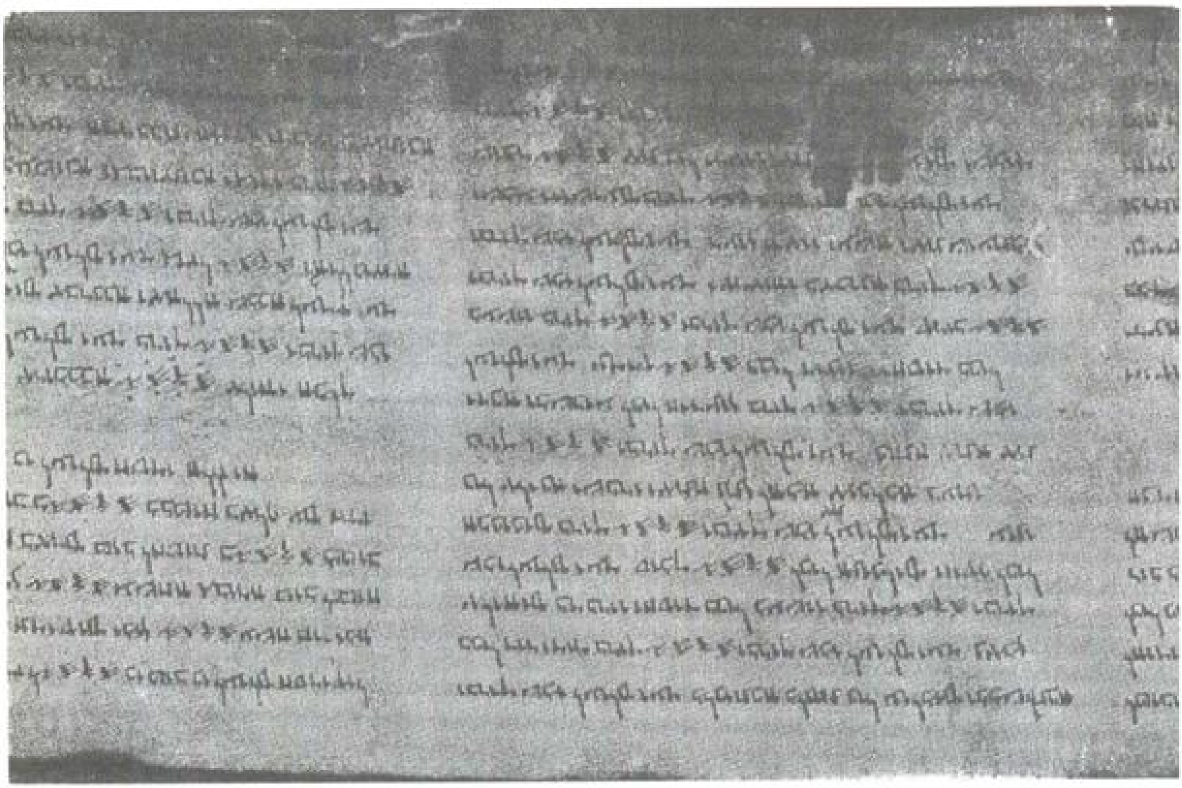
وجاء العثور على مخطوطات قمران مصادفة عندما فقد أحد الصبية من قبيلة التعامرة - التي تتجول في المنطقة الممتدة بين بيت لحم والبحر الميت - معزته، فصعد فوق الصخر باحثا عنها. وشاهد الصبي فتحة صغيرة مرتفعة في واجهة سفح الجبل، وعندما ألقى بحجر داخل هذه الفتحة، سمعها تصطدم بمادة فخارية في الداخل فأعاد الكرة وألقى بعدة أحجار أخرى، وكان في كل مرة يسمع ذات الصوت الذي يحدث عند ارتطام الأحجار بالفخار. عند هذا تسلق الصبي سفح الجبل وأطل برأسه داخل الكوة، واستطاع في ظلام الكهف أن يشاهد عددا من الأوعية الفخارية مصفوفة على أرضية الكهف. وفي صباح اليوم التالي عاد ومعه أحد أصدقائه إلى موقع الكهف، الذي ساعده على الصعود إلى الكوة والدخول منها إلى الكهف، فوجد به عدة أوعية فخارية وبداخلها لفافات تحتوي على سبع مخطوطات.

وسرعان ما ظهرت المخطوطات



معروضة للبيع عند تاجر للأنتيكات في بيت لحم عرف باسم كاندو، الذي باعها لحساب التعامرة، فقام مار أثاناسيوس صموئيل – رئيس دير سانت مارك للكاثوليك السوريين – بشراء أربع مخطوطات بينما اشترى الأستاذ إليعازر سوكينوك الثلاث الباقية لحساب الجامعة العبرية بالقدس. ولما قامت الحرب العربية الإسرائيلية إثر إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ خشي أثاناسيوس على مصير المخطوطات التي اشتراها، فأرسل المخطوطات الأربع إلى الولايات المتحدة لعرضها للبيع هناك، وطلب مليون دولار ثمناً لها. إلا أنه في النهاية وافق على بيعها مقابل ربع مليون فقط، عندما اشتراها إيجال يادين – ابن الأستاذ سوكينوك – لحساب الجامعة العبرية في القدس، وهكذا أصبحت المخطوطات السبع الأولى في حوزة الجامعة العبرية الإسرائيلية.

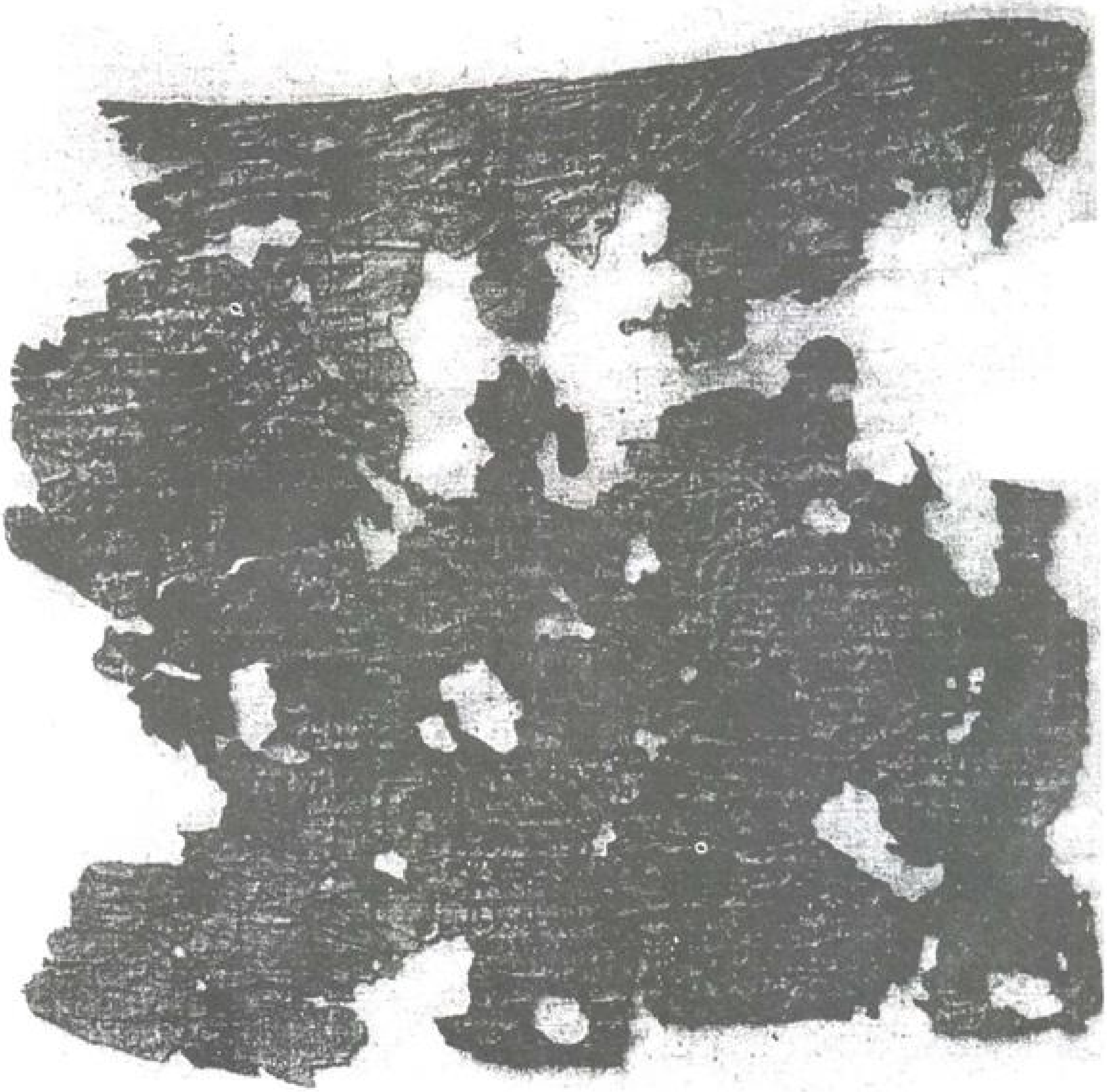
وعندما تم إعلان الهدنة بين الدول العربية وإسرائيل في ٧ يناير ١٩٤٩، أصبحت منطقة قمران – والثلث الشمالي من منطقة البحر الميت – تحت سيطرة المملكة الأردنية الهاشمية. وبدأ الأردنيون ينظمون عمليات أثرية للبحث عن المخطوطات، وكان التعامرة يحتفظون بموقع الكهف سراً لا يبيحون به لأحد، فتمكن الجيش الأردني من العثور على موقع الكهف في نهاية يناير ١٩٤٩ بعد ذلك نظم الأردنيون عمليات تنقيب داخل الكهف نفسه، بإشراف هاردنج البريطاني، وكان يشغل مركز مدير الآثار الأردنية، والكاهن الفرنسي رولاند دي فو، الذي كان مديرا للإيكول بيبليك دي فرانس بالقدس الشرقية. وعثر الأثريون على مئات القصاصات الصغيرة داخل الكهف، إلى جانب قطع من الفخار والقماش والخشب، ساعدت على تحديد تاريخ المخطوطات. إلا أن عمليات التنقيب الأثرية



عالم امريكي يرفض تزييف إسرائيل

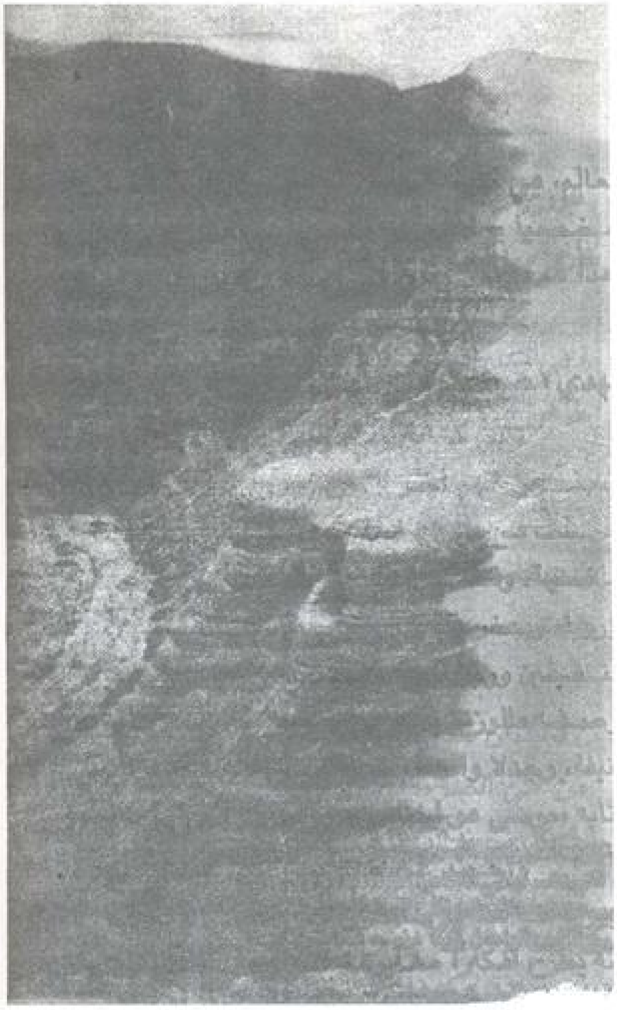
لم تبدأ في بقايا خربة قمران - التي تقع أسفل الكهف - إلا في نوفمبر ١٩٥١، حيث تم العثور على أطلال القـرية القـديمة التى عـاش بهـا العيسويون وبها بقايا رومانية من بينها عملات نقدية، يشيـر تاريخـهـا إلى أن هذا الموقع كان مسكونا إلى أن قامت حركة التمرد اليهودية ضد الرومـان في الفـتـرة مـا بين ٦٦ و ٧٠ مـيـلادية، والتي انتـهت بحـرق مدينة القدس وطرد اليهود من المنطقة المحيطة بها.

وطمعًا منهم في الحصول على الربح المالي، انتشر التعامرة في كل وديان البحر الميت بحثا عن مخطوطات أخرى قد تكون مخبأة في الكهوف الكثيـرة الموجـودة في هذه المنطقـة الجبلية، وفي فبراير ١٩٥٢ استطاع البدو العثور على كـهف آخـر به عـديد من المخطوطات التي تحللت إلى قـصاصات صـغيـرة، باعوهـا إلى السلطات الأردنية. واتبعت سلطات الآثار الأردنية نفس الطريقة التي اتبعـهـا التعـامرة في البحث داخل كهوف البحر الميت عن المخطوطات، وانتهى الأمر عـام ١٩٥٦ باكتشاف مجموعة من أحد عشر كهفا في منطقة قمران تم ترقيمها، وبينما عثر التعامرة عـلى أربعـة كهـوف ١، و ٤، و ٦، ١١، فإن الآثار الأردنية عثرت على السبع الباقية. وقامت الحكومة الأردنية عام ١٩٥٣ بتشكيل لجنة عالمية من ثمانية باحثين - ليس من بينهم عربي واحد - لتولي عملية إعداد المخطوطات ونشرها برئاسة دي فو، وحضـر جميـعـهم من فـرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وألمانيا إلى القدس للعمل.



وفي الوقت نفسه قامت بعثة من الأثريين الإسرائيليين – بقيادة إيجال يادين – بالبحث عن المخطوطات فيما بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٥، في بقايا قلعة ماسادا بالمنطقة التي تقع تحت سيطرتهم في الجنوب الشرقي من مدينة الخليل، وتم العثور على بعض المخطوطات هناك تخص جماعة من المتطرفين اليهود تعرف باسم «حماس».

وعندما نشبت حرب يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل، سقطت الضفة الغربية تحت سيطرة الإسرائيليين، ووقعت المخطوطات التي كانت محفوظة بمتحف القدس في أيديهم، ولم تفلت من هذا المصير سوى مخطوطة واحدة هي المخطوطة النحاسية لأنها كانت في عمان في ذلك الوقت. ومنذ اللحظة الأولى بدأت محاولات الإسرائيليين لتغيير طبيعة





«التعامرة» قبيلة كشفت تاريخاً بالصدفة

المخطوطات عن طريق خلطها مع بعض ما عثروا عليه في كهوف الماسادا، وأوضح مثال على هذا هو مخطوطة المعبد. فلم تكن مخطوطة المعبد من بين المخطوطات التي عثر عليها بدو التعامرة، ولا هي كانت من بين ما عثرت عليه بعثة الآثار الأردنية، وإنما ظهرت لأول مرة في حوزة الجنرال الإسرائيلي إيجال يادين، وهو الذي وضعها ضمن مكتبة قمران بعد سقوط القدس عام ١٩٧٦، وادعى أن مصدرها هو كهف قمران رقم (١١).

ولا أحد يعلم بالضبط كيف حصل يادين على مخطوطة المعبد، كل ما نعرفه عن ذلك هو ما أذاعه حين إذ كتب في ديسمبر ١٩٦٧ بالنشرة الامريكية « بيبليكال اركيولوجيست» يقول : « لا يمكنني في هذه المرحلة الكشف عن الطريقة التي وصلت بها هذه المخطوطة إلى أيدينا » . ومرت أكثر من عشر سنوات قبل أن يعلن يادين انها تنتمي إلى مخطوطات قمران، كما لم يتم نشر صور فوتوغرافية أو ترجمة لهذه المخطوطة في حينه. ثم ذكر يادين أحداث ١٩٦٧ إلى ديفيد برايس جونز في مقابلة صحفية أجريت في أوائل ١٩٦٨، وقال إنه كان يعلم بوجود مخطوطات اخرى من منطقة قمران في أيدي البدو، وبأن كاندو (خليل إسكندر شاهين)، التاجر الذي كان مشتركاً في الاكتشاف الأصلي يوقف مكانها [illegible] يادين أعضاء آخرين

من الجامعة العبرية ومعهم ثلاثة ضباط إلى منزل كاندو في بيت لحم وتم أخذ كاندو تحت الحراسة إلى تل أبيب. وعندما عاد كاندو إلى الظهور بعد خمسة أيام من الاستجواب، اصطحب الضباط وعاد إلى منزله وأحضر مخطوطة كانت مخبأة هناك لمدة ست سنوات، وتبين أن هذا كــــان اكتشافا شديد الأهمية وهو «مخطوطة المعبد»، والتي تم نشرها للمرة الأولى في ١٩٧٧».

إلا أنني عندما التقيت في جامعة هارفارد الأمريكية بالدكتور جون أستروجنل، الذي كان مسئولا عن لجنة ترجمة ونشر المخطوطات حينذاك، أخبرني بأنه لا يعلم شيئًا عن مصدر مخطوطة المعبد، وكل ما حدث هو أن الجنرال يادين أحضرها إليه بعد نهاية حرب ١٩٦٧ وطلب منه ضمها إلى مخطوطات قمران.

وتتضمن مخطوطة المعبد من الحقائق ما يتعارض تماما مع اعتقادات جماعة قمران بحسب ما جاء في كتاباتهم. فهي تحتوي على طريقة تنظيم طقـــــوس العبادة في معبد القدس ومواعيد وطريقة الاحتفالات الدينية به، ونحن نعرف من الكتابات الأخرى أن العيسويين – والذين لم يكونوا يشتركون في أي من طقوس المعبد – كانوا يعتبرون طائفة الكهنة من اتباع «بليعال» (أي الشيطان)، ويصرون على أن الكهنة اليهود قد غيروا في مواعيد الاحتفالات الدينية ودلالاتها، فهم كانوا يتبعون التقويم الشمسي المصري ويحددون المواعيد حسبها، بينما كان الكهنة يتبعون التقويم القمري – مــع بعض تعديلات – فكانت مواعيد احتفالاتهم تقع في أوقات تختلف عما ذكره موسى في التوراة، حيث اتبع موسى التقويم المصري. وهناك احتفال له أهمية خاصة بالنسبة لجماعة قمران، فهم كانوا يقولون إن «الكاهن الشرير» هاجم «المعلم الصديق» في «يوم كيبور» (أي يوم الغفران) وهو يوم جمعة، وكان أهل الجماعة يقيمون احتفالا كل عام في نفس هذا اليوم، وهو المعروف باســم «المأدبــة المســيحية» وهي تشــبه العشاء الأخير لدى المسيحيين.

وتعد مخطوطة المعبد أطول من أي من المخطوطات التي عثر عليها في كهوف قمران، إذ يبلغ طولها أكثر من تسعة أمتار، وتتضمن نصا مكتوبا بالعبرية يرجع أصله إلى ثلاثة قرون قبل الميلاد، وإن كان قد أعيد نسخه عند بداية العصر الميلادي. وهو ينقسم إلى أربعة أقسام: قواعد الطهارة والنجاسة، طريقة الاحتفال بالأعياد، بناية المعبد، سلوك الملك الإسرائيلي وجيشه. وتتعلق معظم الكتابة الموجودة على هذه المخطوطة بشئون معبد القدس، من ناحية البناء نفسه والمفروشات الموضوعة به وكذلك طريقة القيام بطقوس العبادة خاصة تلك التي تتعلق بعملية ذبح الأضحية، في أيام السبت وفي الأعياد. وهناك فقرة تتعلق بطريقة عقاب من يخون الأمة اليهودية عن طريق تعليقه على شجرة: «إذا افترى رجل على قومه وسلمهم إلى أمة أجنبية مسيئًا إلى قومه، فلسوف تعلقونه على شجرة (حتى) يموت».

والأرجح هو أن يكون إيجـال يادين – والذي أشرف بنفسه على عملية الكشف الأثري في ماسادا – قد عثر هناك على مخطوطة المعبد، لأن جماعة الماسادا كانت من اليهود الأصوليين المعروفين باسم «حماس» فهم كانوا يدافعون عن المعبد وطرق العبادة فيه. وعندما نشب الصراع بين الرومان ويهودا وسقطت مدينة القدس عام ٧٠ في أيدي الرومان، قامت جماعة المتطرفين اليهود بالاحتماء في قلعة ماسادا. بنى الملك هيرودوس قلعة ماسادا إلى الغرب من الجزء

إسرائيل سرقت المخطوطات لتزييفها



جون استروجنل

الجنوبي للبحر الميت، فوق صخرة عالية عند حافة الصحراء، حوالي ٢٥ كيلومترا جنوبي «عين جدي» .

ونشب الصراع خفيا بين لجنة المخطوطات وبين سلطات الآثار الإسرائيلية منذ اليوم الأول لسقوط متحف القدس تحت سلطة الاحتلال الإسرائيلي في يونيو ١٩٦٧، إلا أن الأمور استمرت على ما كانت عليه لأكثر من عشرين عاما بعد ذلك، قبل أن يبدأ الصراع المكشوف الذي أدى في النهاية إلى التخلص من السيطرة الكاثوليكية وإحلال سلطة الآثار الإسرائيلية مكانها عام ١٩٩١. ففي عام ١٩٩١ ظهر في لندن كتاب بعنوان « خداع مخطوطات البحر الميت» ، للكاتبين مايكل بيجنت وريتشارد لي، اتهما فيه الفاتيكان صراحة بالتدخل في عملية ترجمة ونشر مخطوطات قمران، ومحاولة إخفاء معلومات وردت بها مخالفة للتعاليم الكاثوليكية. ثم بدأت حملة إعلامية كبرى في أواخر ١٩٩٠ وأوائل ١٩٩١ خاصة في الصحف الأمريكية مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست، تهاجم مجموعة الباحثين المسئولة عن ترجمة ونشر المخطوطات خاصة جون استروجنل رئيس اللجنة، وتتهمهم بالاشتراك في مؤامرة يحيكها الفاتيكان لمنع نشر بعض ما ورد في نصوص قمران.

وأستروجنل هو أحد الباحثين الغربيين النابغين في دراسة اللغات السامية، إنجليزي الأصل ولكنه عمل أستاذًا لدراسات العهد القديم بمعهد « ديفينيتي كوليدج» بجامعة هارفارد الأمريكية، وتبين أن استروجنل - بمناسبة توليه الرئاسة - قد ترك كنيسته البروتستانتية وتحول إلى الكاثوليكية. وكانت العادة أنه عند فقدان أحد أعضاء اللجنة يحل مكانه شخص آخر يتم تعيينه بدلا منه، حتى يظل مجموعهم ثمانية، وكان استروجنل هو أول من غير هذا النظام عندما سمح بضم عدد من الباحثين اليهود إلى اللجنة التي زاد عددها إلى ٢٠ عضوًا بعد ذلك. إلا أن هذا الإجراء لم يبد كافيا في نظر هيئة الآثار الإسرائيلية التي صارت لها السيطرة على متحف القدس وكل ما فيه من مخطوطات قمران.

ثم قام « أمير دروري» مدير هيئة الآثار الإسرائيلية عام ١٩٩٠ بتعيين « إيمانويل توف» - الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس - مديرًا للجنة المخطوطات إلى جانب جون استروجنل المدير الأصلي. وبالطبع فإن هذا التصرف لم يرض استروجنل، الذي يبدو أنه استفز في حديث مع صحفي إسرائيلي اسمه «أفي كاتسمان» الذي نشر في جريدة هاآرتس نص حديث أجراه مع الباحث الإنجليزي اعتبرته السلطات الإسرائيلية «معاديًا للسامية» . فقد نشرت الجريدة على لسان استروجنل أنه قال عن اليهودية : إنها «ديانة مرعبة» وإنها ما هي إلا « هرطقة» للديانة

الصحيحة، والتي هي المسيحية. واختفى أستروجنل بعد ذلك من القدس وظهر في مستشفى بالقرب من جامعة هارفارد، غير مسموح بلقائه، وقيل إن أحد أبنائه حصل على تقرير طبي بإصابة والده بمرض نفسي خطير، استطاع عن طريقه الحصول على أمر من المحكمة بفرض العلاج القسري على الباحث البريطاني. كما قامت جامعة هارفارد في نفس الوقت بطرد أستروجنل من عمله كأستاذ بها. وقام أمير دروري باستصدار قرار بفصل استروجنل من رئاسة اللجنة وتثبيت إيمانويل توف في منصبه عام ١٩٩١، ثم أضافت السلطات الإسرائيلية عددًا آخر من الباحثين الإسرائيليين إلى لجنة المخطوطات حتى أصبح مجموعهم خمسين عضوًا غالبيتهم من الإسرائيليين الصهاينة.